# حضور بعض مقولات لسانيات النص في المسند النظري الباختيني

أ / أم السّعد حياة
**جامعة الجزائر 2 ( الجزائر)**

La genèse du roman a toujours occupé une place remarquable dans les travaux des critiques, des philosophes de l'esthétique et des comparatistes. Dés que la nouvelle critique a mis l'accent sur l'impasse du texte clos en théories systématiques et immanentes, en conçoit un retour sans replis aux approches génétiques.

Mikhaïl Bakhtine ; un philosophe de l'esthétique et un érudit critique russe, démontre dans un cadre purement anthropologique et sociologique que le roman est un descendant de plusieurs genres inférieurs comme le dialogue socratique, la Ménippe et le carnaval.

L'entreprise de cet article envisage les outils épistémologiques, percées par Bakhtine pour comprendre la généalogie d'un genre littéraire, conçu dans les temps moderne comme un genre ouvert à d'autres genres et infini.

"لا يدخل النص ضمن الإطار اللساني أو الفيلولوجي،إنما يدخل في مجال عبر لساني، هذا الجانب من أوجه النص ملك له فقط، فالنص لا وجود له إلا داخل التبادل اللفظي في مجال معين، فلا يُنظر إليه كمادة قابلة للتكرار ولكن في علاقاته بباقي النصوص" " لم تستطع اللسانيات لحد الآن الاهتمام بالمجموعات اللفظية الكبيرة: الملفوظات الطويلة التي نستعملها في الحياة اليومية, الحوارات، الخطابات، الروايات،....فلحد الساعة لم تتقدم اللسانيات علميا خارج حدود الجملة المعقدة.

**ميخائيل باختين**

حظي **النص** و**الخطاب** في الدراسات النقدية الحديثة باهتمام واسع، مما جعل التنظيرات النصية تعرف شيوعا وتوسعا يختلف من منظر إلى آخر حسب الانطلاقات المعرفية لكل باحث، وكانت **لسانيات النص** من بين المجالات المعرفية الحديثة المتسمة بالمرونة في تعاملها مع الظاهرة النصية، وتجذرت رؤاها وفق منطلقاتها المنهجية وروافدها الفلسفية المتنوعة، مما جعل مقولة النص في كنفها تدرس بمرونة تتماشى مع مكونات النص، مستثمرة من أجل الإحاطة به مجالات معرفية عدة، وهي بذلك خطت خطوات باهرة من أجل تقديم الصورة الأكثر تفتحا سعيا لمقاربة تتماشى مع طبيعة وخصوصية **النص**، متجاوزة بذلك الإطار المغلق الذي قبعت فيه اللسانيات الكلاسيكية في انحصار دراستها في حدود الجملة، لأنها ظلت تعتقد لسنوات أن الجملة هي الوحدة الثابتة في النص، وهي أساس التواصل الإنساني.

لكننا في الحقيقة لا نتواصل بجمل ولكن بنصوص، وهو الأساس المنهجي الذي انطلقت منه **لسانيات النص** لاكتشاف بنية هذا النسيج المميز الذي لا تخلو منه حياة الفرد برمتها، إذ يشكل جزءا هاما من واقعه.

تشتغل **لسانيات النص** على النص، ولمقاربته وظفت مختلف ما سبقها من دراسات، سواء في السميائيات مثل ما جاء به غريماس أو كريستيفا أو بارت أو ماجاء به جنييت في السرديات، وحتى استثمار ماقدمته البلاغة القديمة والحديثة، والدراسات السوسيولسانية وعلم النفس اللساني، والمعرفي والذكاء الاصطناعي... يقول جون ميشال آدم محاولا تعريفها: "إن **اللسانيات النصية** يمكنها اليوم أن تحدد كمجموع نظري يستطيع أن يستوعب كل هذا الإرث المعرفي"(1)، إلا أنه يؤكد ضرورة معرفة الطريقة الجيدة التي تعيننا على استثمار هذا الموروث لتجنب الوقوع في التلفيق العلمي.

على الرغم من أن الجانب التاريخي لهذا العلم كان موضع خلاف بين المنظرين، إلا أن أغلبهم يرى أن ظهوره الفعلي كان في بداية السبعينيات، لأنه قبل هذا التاريخ كان متداخلا مع علوم يصعب وضع ملامح عامة له في خضمها، لكن إن اعتبر الكثيرون2 أن تأسيسه نابع من التعريف الذي جاء به هاريس للخطاب سنة 1952، فالحقيقة غير ذلك كما يقول جون ميشال آدم، فالعودة إلى سنوات متقدمة عن هذا التاريخ تبين أن "ميخائيل باختين" قد أشار بصراحة إلى القصور والعجز الذي باتت اللسانيات الكلاسيكية تعانيه، من جراء عدم تجاوزها للجملة، إذ يقول: "إن اللسانيات لم تستطع لحد الآن الاهتمام بالزمر اللفظية الكبيرة: الملفوظات الطويلة التي نستعملها في

الحياة اليومية: الحوارات، والخطابات، والروايات،....فلحد الساعة لم تتقدم اللسانيات علميا خارج حدود الجملة المعقدة".(3)

يلاحظ جليا من القول تفطن **ميخائيل باختين** المبكر لتمركز الدراسات اللسانيات على الجملة، وتناولها من حيث بناها الثابتة، سواء الصوتية أو الصرفية أو التركيبية، بغض النظر عن علاقاتها بما يسبقها وما يليها، هذا ما يبرر انتفاء النظرة التي ترى النص ككل في الدراسات اللسانية المجردة التي أرسى دعائمها فرديناند دي سوسير، وقد انتقد باختين نهجه **الموضوعي المجرد**، وانطلاقا من هذا النقد فتح المجال لعلم جديد سماه **عبر- اللسانيات** (4) la translinguistique وأرساه انطلاقا من التحديد الذي قدمه للنص أو الملفوظ أو الخطاب أو التلفظ.

سنقف في هذا المقال لعرض الجهود التنظيرية **لميخائيل باختين** الساعية في فترة متقدم إلى دراسة النص وتناول مشاكله بأدوات متنوعة ذلك أن هذا العالم لم يتخندق ضمن مجال معرفي واحد، بل كانت مشاربه العلمية متنوعة مستقاة من روافد فلسفية، ونفسية واجتماعية وتاريخية، فباختين وُجد في حقبة كانت تعرف صحوة علمية شغلت العديد من المجالات المعرفية، والمجال اللساني هو ما يهمنا في مقاربتنا لهذه المفاهيم، ولعل البدايات العلمية الأولى التي ظهر فيها باختين، وهو شاب، عرفت ذيوعا للسياق الشكلاني الروسي الذي أنتجت دراساته وأبحاثه بالتزامن مع ما قدمه سوسير، وعليه لكي يَنتقد باختين الإجحاف الذي تعاني منه النصوص الأدبية جراء التطبيقات الشكلانية الممارسة عليها، التي قتلت جوهرها الجمالي بأدواتها التقنية، توقف باختين لينقد المبادئ اللسانية المنتشرة في أوانه، والتيارات النفسية، وفلسفة اللغة، لتبرز من خلال هذه الانتقادات جملة من المفاهيم من جهة، وأفق بَحث يؤكد على أن **النص** لا يتكون من العناصر اللسانية فقط، بل يضم أيضا مكونات لا تدرك بالأدوات اللسانية، عليه تحتاج هذه النصوص إلى علم آخر هو **عبر اللسانيات**، أو ما يسمى حديثا التداولية كما أطلق عليها تودوروف.

لهذا من المفيد جدا أن لا نحرق المحطات والعتبات، ونخوض فقط في مفاهيم **النص والخطاب والملفوظ والتلفظ** ... المبثوثة في كتب **تحليل الخطاب** و**لسانيات النص** و**الدراسات التداولية** الحديثة، بل علينا أن نُزَود رصيدنا المعرفي بالجهود المفاهيمية المهمة التي قدمها باختين في سنوات سبقت ظهور هذه المناهج الحديثة. خاصة ونحن نعرف ثقله ووزنه العلمي الذي يشهد له به الكثير من المنظرين، فيُجمع جل من كتب عن باختين، سواء من قدَّم لكتبه، أو من أخضع أعماله النقدية إلى الدراسة والتحليل،

على العمق المنهجي الذي يمتاز به، عمق كان وليد التشبع بتيارات فكرية وفلسفية ولسانية متشعبة، مما يدل على ثقافته الواسعة واحتكاكه بما كان يشغل عصره من قضايا مختلفة. لهذا فالحديث عن السياقات العامة التي غلفت فكره والانطلاق منها يفتح للقارئ أفقا أوسع لفهم العمق التنظيري لهذا الناقد واللساني، الذي نصادف دوما أثناء قراءته تنوعا معرفيا ومفهوميا يصعب النفاذ إليه.

هذا ما جعل جون بييتارد وقد درس أعماله يقول عنه: "ليس فقط لأن ميخائيل باختين أول المنظرين الذين قالوا، عن **التلفظ** و**الملفوظ** في فرنسا وخارجها أكثر من المهم، بل ولأنه أعاد التفكير في **التاريخ اللساني** وأعاد تسطير وجهات نظر جديدة. لهذا هناك باختين القبلي وباختين البعدي فهو، ليس فقط منظرا للأدب العام والمقارن كما نعتقد، أو أدبيا مختصا في دوستويفسكي ورابليه، بل هو أيضا منظر للغة "(5).

إذًا، يتميز باختين بوعي فلسفي ساعده على تَبَصر أهم القضايا المعرفية المطروحة في عصره، والتي شغلت العصور اللاحقة، فاتسمت طروحاته بالاتساع والعمق، ليس من غرض هذا المقال تقصيها، وهو ما كثف الدراسات التي خصصت له فنذكر: "تركة ميخائيل باختين"(6)، وهو كتاب خصصه له مجموعة من المهتمين بتنظيراته، بمناسبة مرور مئة سنة عن ولادته، وعشرين سنة من وفاته، قدموا دراسات جادة عرضوا فيها أهم الخلفيات المعرفية التي اتكأ عليها في لبناء مفاهيمه، اللافت في هذا الإنجاز أن كاتبة المقدمة كاترين دبرتو Catherine Depretto، الواردة في عنوان: "ميخائيل باختين اليوم"، بعد أن أشارت إلى أهمية المكانة التي يحتلها باختين في الدراسات النقدية اليوم، عرجت على جملة من الأعمال التي تناولته انطلاقا من فرنسا، مع ما كتبته كريستيفا وتودوروف، إلى روسيا التي ساهمت في إجلاء معالم هذا الرجل، غير أنها تحدثت عن صعوبة حصر كل الدراسات التي تناولت باختين.

ما يهمنا تحديدا في هذا المقال هو الوقوف عند اجتهادات باختين ونقده للسانيات دي سوسير، بهذا النقد استطاع باختين أن يقدم مفاهيم جوهرية تعد اليوم مهمة ومركزية في الدرس اللساني النصي، من بينها: النص، الخطاب، الملفوظ، التلفظ، السياق التلفظي، التيمة، أجناس الخطاب، التبادل اللفظي، إلى غيرها من المصطلحات نعرضها لنبرز الدور الذي لعبه باختين في إخراج الدراسة اللسانية من الجملة إلى النص، طبعا من دون أن ينفي أهمية البناء الصوتي والصرفي والتركيبي في النص، فهي أبنية تبقى موادا أولية تعززها مكونات أخرى تقود إلى ما يُحَدد به **النص**.

**1* النص موضوع العلوم الإنسانية:**

حظي **النص** أو **الخطاب** باهتمام كبير في التنظير الباختيني وإذا ألقينا نظرة متفحصة على أعماله لتبدى لنا جليا أن منبع هذا الاهتمام تولد من خلال محاولته للتفريق بين **العلوم الطبيعية** و**العلوم الإنسانية**، هذان المجالان الحيويان الموجودان معا في التاريخ الإنساني، إلا أنهما مختلفان، هذا ما جعل باختين يجلي عمق الاختلاف بينهما، إذ يقول: "لا تعرف الرياضيات والعلوم الطبيعية بتاتا الخطاب كموضوع للتوجيه، إذ ينحو كل الجهاز العلمي للرياضيات والعلوم إلى التحكم في موضوع مشيأ لا يتجلى في الخطاب ولا يتواصل على شيء من ذاته، إننا أمام لحظة لا ترتبط المعرفة بالتلقي أو بتأويل الخطاب أو العلامات النازحة من موضوع المعرفة في حد ذاته.

أما في العلوم الإنسانية على خلاف العلوم الطبيعية والرياضية، تتبجس المشاكل الخاصة ببناء وبث واستقبال خطاب الآخر"(7.)

بهذا التفريق يخوض بنا باختين ليعمق الهوة الموجودة بين هذين المجالين المعرفيين، على أساس أن ما يفرقهما نقطتان أساسيتان:

- الأولى: تخص الاختلاف في الموضوع l'objet
- الثانية: تخص الاختلاف في المنهج la méthode

يرى باختين أن موضوع العلوم الإنسانية هو **النص** le texte، إذ يقول: "أن العلوم الإنسانية تنحو نحو الأفكار والمعاني والدلالات... التي تأتي من الغير، والتي تتجسد وتهدى إلى العارفين فقط تحت ما يسمى بالنص. فالنص (مكتوب أو شفهي) كمعطى أولي في كل هاته الميادين: اللسانية والفيلولوجية والدراسات الأدبية، وبصفة عامة كل العلوم الإنسانية والفيلولوجية وحتى الفكر البيولوجي الفلسفي. **النص** هو الواقع الفعلي، واقع الفكر والتجارب، الذي تتشكل بداخله كل هذه الميادين ... فحيث لا يوجد **نص** لا يوجد أيضا موضوع للبحث أو التفكير"8.

إذا موضوع العلوم الإنسانية ليس الإنسان فقط كذات، ولكن الإنسان كمنتج **نص** أو نصوص فالعلوم الإنسانية هي علوم للإنسان في ميزاته. وليس باعتباره شيئا دون صوت أو كظاهرة طبيعية. فعندما نقول الإنسان في ميزاته الإنسانية أي باعتباره دائما متكلم أي مبدع لنص ما.

لهذا حاول باختين من خلال تقديمه للفرق ما بين العلوم الطبيعية والإنسانية أن يركز على عقدة النقص التي تعتري العلوم الإنسانية في مقابل العلوم الطبيعة، فجراء

هاته العقدة ظلت العلوم الإنسانية تحاول دائما أن تؤقلم نفسها مع العلوم الطبيعية، وبذلك ضحت بجزء كبير من خصوصيتها لأنها تنسى دائما أن موضوعها ليس موضوعا ولكن ذات أخرى، لهذا حاول باختين في كتاباته الأولى أن يبين أن الجوهر الموضوعي الحقيقي للعلوم الإنسانية أكثر مرونة من العلوم الطبيعية، لهذا إذا حاولنا أن نخضع النص إلى مقاييس هذه العلوم بحثنا عن جزئه **المادي** فقط. بهذا الصنيع ننزله إلى مستوى أسفل من مكانته(9). وهذا غير شرعي لأننا نقتل خصوصية النص الكامنة في موضوعه الجمالي وجانبه الإبداعي لا في المواد الأولية التي تكونه. وهو ما كانت تقوم به الدراسات الشكلانية التي تعتمد في دراستها للنص على البنى اللسانية، أي تتوقف عند الأدوات الصوتية، أو التركيبية ويحاولون تجنب البحث عن المقاصد بما أنها غير مرئية، لهذا خالف باختين الشكلانيين وعارضهم كثيرا(10) ، إذ يقول: " نحن نؤكد بدون ملل على الجانب الموضوعي والدلالي والهيئة التعبيرية، أي القصدية....أفضل من تمسكنا بالمؤشرات اللسانية، (التلوينات المعجمية، والتناغمات الدلالية)..فهذه المؤشرات الخارجية المرئية والمتعرف عليها على المستوى اللساني لا تستطيع هي نفسها أن تقبل بدون أن نفهمها ونؤولها وفق المقاصد التي تحركها" (11).

إذا باختين لا يبحث فقط عن الأشكال المادية التي تنتج اللغة ولكن أيضا القصد والقوى الإنتاجية الخفية التي يدفعها ويولدها الأفق الاجتماعي، لأن اللغة الاجتماعية ليست مجموع الأمارات اللسانية فقط ولكنها المجموع الحقيقي والواقعي والمجسد والحي للاختلافات الاجتماعية.

لهذا يجب فك عقدة العلوم الإنسانية لتفتح الدراسة الحقيقية للنص، ليخرج من التخندق الذي وضعته فيه الدراسات اللسانية والبنيوية بتوقفها عند **المواد** المساهمة في تحقيقه دون أن تلج إلى مكوناته الأخرى، لأنها ضيقت خناقه وأهملت جوانبه الأكثر حيوية ومرونة والتي تشكل جوهره، لأنها رأت أن **النص** شكل يحمل منطقا ثابتا، رغم أن باختين يسمع فيه أصواتا وعلاقات حوارية بين ثناياه(12).

_ كما بين باختين أن منهج العلوم الإنسانية قائم على **الفهم**، مقارنة بمنهج العلوم الطبيعية القائم على الدقة، والفهم في العلوم الإنسانية يكتسب أبعادا جوهرية في تعامله مع الظاهرة النصية، لأن الفهم له بعد **حواري** يقودنا إلى النواة المبدعة في هذا الإنسان، يقول: "الفهم بمثابة وضع علاقات بنصوص أخرى وكإعادة تأويل في سياق جديد"(13). فهل ستكون اللسانيات قادرة على دراسة النص في أبعاده المختلفة؟

**2*من اللسانيات الجملية إلى المجال عبر اللساني:**

انتقد باختين اللسانيات في كتابات عديدة إلا أن مؤلفه "الماركسية وفلسفة اللغة" (14) حمل العديد من النقاط الجوهرية التي بينت الثغرات التي تركتها اللسانيات في تعاملها مع النص، خاصة أن باختين في هذا المؤلف طغى على نقده البعد السوسيولوجي لأنه كان ماركسيا جدليا، يقول عنه جاكوبسن: "...إن كان باختين يعرض هنا مقاربة ماركسية لفلسفة اللغة، غير أنه يلمس مختلف مجالات العلوم الإنسانية مثل: علم النفس المعرفي، علم السلالات، البيداغوجيا، النقد الأدبي، السميولوجيا الحديثة، فباختين يملك من كل هذه الحقول وجهة نظر متقدمة عن زمانه"(15).

منَ المؤكد أننا لن نستطيع الوقوف عند كل النقاط المختلفة التي تعرض لها المُؤلف، بل سنركز على أهمها وما يخدم طبعا أهداف المقال. فقد توقف باختين في هذا المُؤلف معارضا وناقدا بعض الاتجاهات اللسانية والفلسفية التي سبقته، من أجل الوصول إلى تطبيق المنهج السوسيولوجي في اللسانيات. لهذا فأول نقطة نقف عندها هو النقد الذي وجهه لـ"دي سوسير"(16)، ولسانياته التي يطلق عليها باختين مصطلح **الموضوعية المجردة**، لأن سوسير يُعرف اللسان على أنه موضوع مجرد، ومتعال، آن ومتجانس، ويرفض دراسة **الكلام** أي **التلفظ**، ويخرجه من حقل اهتمامه العلمي، لأن الكلام حسب دوسوسير تأدية فردية.

هنا نقطة الاختلاف لأن باختين ينطلق أصلا من **الكلام** أو **التلفظ**، مصرحا لا بطبيعته الفردية ولكن بطبيعته **الاجتماعية**، لأن **الكلام** مرتبط ارتباطا وثيقا بشروط التواصل التي تقترن دائما بالبنى الاجتماعية، يقول: "إذا كان الكلام محرك التحولات اللسانية، فهو ليس فعلا فرديا، في الحقيقة في **الكلمة** تغوص كل النغمات accent الاجتماعية المتعارضة، فالصراع في اللسان يعكس الصراع الطبقي الموجود داخل النظام نفسه."(17)

يركز باختين دوما على الطبيعة **الاجتماعية للعلامة**، وبالتالي كونها **ايدولوجيا**، لأن لا وجود **للكلمة** أو **التلفظ** من دون **سياق اجتماعي**، أي سياق للتلفظ: "فكل متكلم إلا ويحمل **أفقا اجتماعيا** معينا يعينه على اختيار الكلمات المناسبة" (18). لهذا اهتم باختين ببنية الملفوظ وبالتلفظ والتبادل اللفظي والبعد الحواري في الدراسة **عبر اللسانية** ليفتح آفاق النص الحقيقية ومكوناته التي ضيقت خناقها الدراسات اللسانية الموضوعية المجردة.

**3* تحديد المقاربة عبر. اللسانية:**

يؤكد باختين في ثنايا أعماله على أهمية **النص** في حياة الإنسان ككائن اجتماعي، لأن النص جوهر التعاملات الإنسانية على اختلافها فلا يجب أن نعتقد أنه بالإمكان النظر إليه كموضوع لعلم واحد يستطيع أن يحيط بكليته، فتبقى المقاربات اللسانية عاجزة أمام ثرائه التكويني، وهو ما يحتم ضرورة إنشاء علم جديد سماه باختين الدراسة **عبر اللسانية** التي تتعامل مع الظاهرة النصية من دون التغاضي عن المكونات التي أهملتها المقاربة اللسانية، إن كان باختين قد أكد على أهميتها، إذ يقول: "في بنائنا لمقولة اللسان وعناصره التركيبية والمرفولوجية والمعجمية..فإن اللسانيات تجرد أشكال تنظيم الملفوظات من وظائفها الاجتماعية والإيديولوجية، تجريد مثل هذا يبقى مشروعا وضروريا وهو ما يمليه الموضوع المعرفي والتطبيقي للسانيات ذاتها، فبدون اللسانيات لا يمكننا بناء مقولة اللسان كنظام"(19).

غير أن باختين يفرق بين الدراسة **اللسانية** و**عبر اللسانية**، فموضوع اللسانيات مبني على اللسان وتقسيماته، الصوت والكلمة والجملة أو القضية، أما موضوع الدراسة **عبر اللسانية** فهو الخطاب أو النص الذي تمثله ملفوظات فردية، وأطلق باختين على الخطاب لفظة « slovo » وهي تعني في نفس الوقت الكلمة والخطاب معا (20).

مفهوم **الخطاب** هنا هو اللسان بكله الواقعي والحي، أي اللسان كظاهرة ملموسة، والحديث عن كلية الخطاب يعني التحدث عن مفهوم **التلفظ** باعتباره كل إنتاج لفظي مأخوذ في سياقه التاريخي والاجتماعي والثقافي. فـ**السياق** له أهمية كبيرة في تحديد التلفظ كما سنرى لا حقا. وهو الخاصية المُحَقِقة للنص مما يجعل اللسانيات قاصرة بأدواتها الإجرائية على مقاربته، لهذا اقترح باختين الدراسة **عبر اللسانية** كونها تأخذ بعين الاعتبار **سياق التلفظ** الذي يجعل من نص ما نصا وحيدا وغير قابل للتكرار، إضافة إلى العديد من المكونات التي تجعل من نص ما نصا في التنظير الباختيني، لهذا سنتوقف عند مفهوم النص أو الملفوظ وكيفية الإحاطة به في الدراسة **عبر اللسانية**، مع التعرف على حدوده ومكوناته ووظائفه وهنا نتحدث عن التلفظ وسياقه وضرورة مراعاة وضعية التلفظ، إضافة إلى ذلك سنتطرق إلى مفهوم الخطاب أو النص في علاقاته بباقي الخطابات ضمن جنس خطابي معين، ونركز على مفهوم **الحوارية** عند باختين وهي ميزة نصية لا تعترف بالنص إلا في تحاوره مع نصوص أخرى.

**4_ المقاربة عبر اللسانية للنص:**

عرفت كتابات باختين المتنوعة اهتماما منقطع النظير تعلق بالوقوف المتأني عند مفهوم **النص** الذي يطلق عليه في ثنايا أعماله أيضا مصطلح **الملفوظ** أو **الخطاب**، وهي مصطلحات اكتسبت نفس المفهوم في تنظيراته، وكان جوهر الاهتمام بها نابعا من محاولته الكشف عن بنية وحدود وأسلوب ومشاكل هذا النسيج المعقد والمتنافر التكوين الذي حاولت الدراسات اللسانية والبنيوية والشكلانية اختزاله في حدود ضيقة لا تتجاوز في التعامل معه مستوى القضايا أو الجمل التي يتحقق بها.

من ثمة رأى باختين أن دراسة **النص** تخرج من المجال اللساني الضيق، ويرجع هذا إلى طبيعة النص التي تطرح مشاكل حدوده وبنيته ووظائفه، لأن كل **نص** حسب باختين (باعتباره ملفوظا) هو فردي، ووحيد ولا يمكن إعادة إنتاجه، وما يمكن أن يكون معادا للإنتاج في النص إنما **المادة** matériau لهذا: **فالنص** هو ما لا يدخل داخل الإطار **اللساني أو الفيلولوجي**، إنما يدخل في مجال **عبر لساني**، وهذا الجانب من أوجه النص ملك له فقط، فالنص لا وجود له إلا في سلسلة النصوص (أي داخل التبادل اللفظي في مجال معين)، فلا ينظر إليه **كمادة قابلة للتكرار** ولكن في **علاقاته بباقي النصوص.(21)** فكل ما هو لساني في **النص** ليس إلا **وسيلة** فقط، مادام النص يضج بالعناصر غير اللسانية.

كما يرى باختين أن المشكل الحقيقي الذي يجب أن ننطلق منه هو طرح هذه الأسئلة: ما هو خطابنا؟ ما هو حقل فعله؟ هل له بداية ونهاية؟ وتسبح كل هذه الإشكاليات في التحديد الجزئي وغير المكتمل لمفهوم الخطاب الواسع، يقول: "كلمة "**خطاب**" الواسعة، التي تحيل، بدون أن تضع فروقا، إلى **اللسان**، وإلى **سيرورة الكلام**، إلى **الملفوظ**، إلى **تتابع ملفوظات**(ذي طول متغير)، إلى **جنس خطابي** معين، فهذه الكلمة إلى الآن لم تُحوَّل من قبل اللسانيات إلى مقولة محددة في معناها"(22). إذا، مفهوم **الخطاب** لم يحدد من قبل اللسانيات، لهذا مازالت مشكلات **الملفوظ** و**أجناس الخطابات** مطروحة. ومنه يتهم باختين اللسانيات التي لم تستطيع تقديم تحديد عنصر **التبادل اللفظي** وهو **الملفوظ**، لطبيعته المتنافرة، رغم أن **الكلام** لا وجود له في الواقع إلا في شكل مجسد لملفوظات متكلم ما ولا تستطيع أن توجد خارج هذا الشكل، يقول: "كيفما كان الحجم، والمحتوى، والتكوين، تمتلك **الملفوظات** دائما، باعتبارها **وحدة التبادل**

**اللفظي**، ميزات بنائية مشتركة، وقبلها حدودا واضحة، وسنحاول الوقوف عند مشكل **الحدود** لما له من أهمية في تحديد طبيعة الملفوظ" (23).

**مفهوم الملفوظ أو النص..**

قبل أن يعرف باختين **النص** بين أنه مجال حيوي يعتبره معطى أولي لكل الحقول المعرفية: فلسفية، ودينية، ولسانية، وفيلولوجية، سواء كان شفهيا أو مكتوبا فمهما كان موضوع الدراسة فلا يمكنه أن يكون إلا انطلاقا من النص أي بالنص، يؤكد باختين على أن أهمية النص ومعرفتنا به تدفعنا قدما من أجل معرفة بنيته أي طبيعته ومشكل حدوده وأنواعه ووظائفه، التي لا يمكن للدراسة اللسانية أن تقاربها.

يرتبط النص أو الملفوظ بقوة با**ستعمال اللغة**، التي تختلف طريقة توظيفها بتنوع التعاملات الإنسانية، هذا الاستعمال قائم في شكل **ملفوظات** حية تعمل على تمثيل مجالات التعاملات الإنسانية المتنوعة، وعليه يعكس **الملفوظ**، الشروط الخاصة والنهائية لكل هذه المجالات، لكن ليس فقط بمحتواه الموضوعي (التيمي)، وأسلوب لغته أي المستويات المعجمية، التركيبية والنحوية، لكن أيضا ببنائه التكويني.

لهذا تصب العناصر الثلاثة: **المحتوى الموضوعي، والأسلوب، والبناءات التكوينية** كلها في كلية **تركيب الملفوظ**، كل واحدة من هذه العناصر تحددها طبيعة المجال **الاستعمالي** للسان يقول باختين: "كل ملفوظ أخذ معزولا هو فردي، ولكن كل وسط استعمالي للسان، يُكون نماذج نسبية مستقرة من الملفوظات، هذا ما نسميه **أجناس الخطاب**"(24).

ما يقصده باختين بـ**أجناس الخطاب** هو ما يفرضه تنوع استعمالات اللسان حسب مجال التداول اللساني، فكل مجال إلا ويفرض جنس الخطاب المستعمل فيه، لهذا تعرف أجناس الخطاب ثراء واسعا، كما أنها لا تعرف تجانسا: فلدينا الحوار اليومي بتنوعاته المختلفة حسب المواضيع، الخطاب العلمي، والأدبي، وهذا التنوع يجعلنا نظن أن لا دراسة يمكن أن تجمعها لتنوعها.

يصرح باختين أن الكشف عن طبيعة **الملفوظ** و**أجناس الخطاب** تكتسي أهمية كبيرة لأن: "اللسان يتسرب إلى الحياة عبر **ملفوظات** حية، وعبر هذه الملفوظات أيضا يمكن للحياة أن تتسرب في اللسان(25)، لهذا كانت: "دراسة طبيعة **الملفوظ** و**أجناس الخطاب** لها قيمة تأسيسية، إذا أردنا أن نتجاوز المقولات التبسيطية المتعلقة بالحياة

اللفظية، والتواصل، فدراسة **الملفوظ** باعتباره وحدة **التبادل اللفظي**، يسمح لنا بفهم أكبر لطبيعة وحدات اللسان، باعتباره نظاما، أي مكونا من الكلمات والقضايا (الجمل)"(26).

في تناول باختين لهذا العنصر رصد اهتمام اللسانيات في القرن التاسع عشر بـ**الملفوظ** انطلاقا من هومبلدت إلى دي سوسير، اللذين ألغيا **الآخر** أو المستمع من حقل **التلفظ**، وركزا فقط على المتكلم، وأهملا بالتالي دوره في الكلام والتبادل اللفظي، والحيز المهم الذي يشغله في سيرورة الكلام.

من ثمة تتعلق **حدود ملفوظ** ما بما يحويه من بداية ونهاية محددتين، فقبل البداية هناك **ملفوظات الآخرين** وبعد النهاية هناك **ملفوظات إجابة الآخرين (27)**، فوجود ملفوظ ما متعلق بما يسبقه وبما يليه من ملفوظات، هنا لا يعترف باختين بفردية الملفوظ، إنما يؤكد على أن **الغيرية** تطبعه من البداية وما قبلها، إلى النهاية وما بعدها. لأن المتكلم يبني ملفوظه انطلاقا من ملفوظات قبلية اكتسبها من الوسط الاجتماعي أو الثقافي...، وبعد أن ينهي ملفوظه يعطي الكلمة **للآخر** ليفهم ما قاله المتكلم..: ""ليس الملفوظ وحدة تعاقدية، ولكنه وحدة واقعية محددة **بتناوب** الذوات المتكلمة، والتي تنتهي بتحويل كلام إلى آخر"(28).

يتضح انطلاقا مما قيل، أن **الملفوظ** وحدة **التبادل اللفظي** الذي لم تهتم به اللسانيات التي اعتنت فقط بـ**القضية** أو **الجملة** ويسميها باختين بـ**وحدة اللسان**. وسنتطرق لمزيد من التوضيح إلى الفرق بينهما كما قدمه باختين.

**بين الجملة/ القضية والملفوظ/النص:**

حدد باختين جملة من الفروق بين القضية والملفوظ ليؤكد أن الأولى مجالها لساني، أما الثانية فلن تستطيع المقاربة اللسانية الإحاطة بها، والفرق بينهما: أننا لا نجد في القضية تناوبا بين المتكلمين، فحين يكون تناوب فنحن أمام ملفوظ وليس قضية. كما أن القضية ليست لها علاقة مباشرة مع الواقع، وليست لها علاقة مباشرة مع الملفوظات **الغيرية**، وهي لا تحتوي على معنى تام .."(29)، وإن كانت جزءا دالا أي يحمل معنى، غير أنه لا يتحقق إلا في **كلية الملفوظ**.

كما أن القضية أو الجملة باعتبارها وحدة اللسان، فمثلها مثل الكلمة، ليس لها مؤلف، وليست ملكا لأحد، وعندما توظف كملفوظ هنا فقط يمكنها أن تكون تعبيرا فرديا في موقف حي في **التبادل اللفظي**.

كما يوضح باختين نقطة مهمة وهي حيادية الجملة/القضية في مقابل **الملفوظ**، فاستعمال الجملة التي هي وحدة اللسان لوحدها من دون ملفوظ يجعلها حيادية وليست ملكا لأحد، ولا هي موجهة لأحد، إلا إذا وُظفت في **سياق** معين، داخل ملفوظ ما، فستصبح عنصرا مكونا للملفوظ مرتبطا بالواقع الذي تستعمل فيه وبالتالي يعد اختيارنا **لاستعمال** معين **من القضايا** محددا **لجنس الخطاب** الذي سنضع فيه ملفوظاتنا.

إذًا، **بنية الملفوظ** أكثر تعقيدا من بنية القضايا المكونة له، ولا يُفهم الملفوظ إلا في ظل شروط تكونه، و**الجنس الخطابي** المنتمي إليه، الذي يساهم بطريقة أو بأخرى في تحديده، بالتالي الفرق واسع بين **القضية** و**الملفوظ**، والانتقال من الأولى إلى الثانية لا يعني الخلط بينهما ولا يعني كون مجال دراستهما واحد، فقد يكون الملفوظ مكونا من قضية واحدة أو من كلمة أو بالأحرى وحدة كلامية واحدة، ولكن هذا لا يعني أن القضية هي الملفوظ، فـ**القضية** تبقى وحدة **اللسان** و**الملفوظ** يبقى وحدة **التبادل اللفظي**، لهذا ،حسب باختين، في ظل غياب نظرية مدركة لهذا الفرق يبقى الخلط بين المصطلحين قائما، رغم أن الملفوظ هو وحدة التبادل اللفظي: "ويستحيل فهم الطريقة التي يبنى بها أي ملفوظ، إذا لم نعالجه كلحظة، كقطرة في نهر التواصل اللفظي"(30).

لهذا كانت أهم خاصية من خواص **الملفوظ** اعتماده على **التناوب** بين الذوات المتكلمة التي تُكَوِّنُه، هذا أهم فرق بينه وبين **القضية**، كما أن الملفوظ مكتمل، وعندما نقول: نهائية الملفوظ أو اكتماله فإن مرد ذلك تناوب الذوات المتكلمة داخل هذا الملفوظ، يتم هذا التناوب لأن المتكلم قال أو كتب كل ما أراد في فترة معينة وضمن شروط محددة، فعندما نسمع أو نقرأ ما قاله أو كتبه نحس **باكتمال الملفوظ**، يمكن أن نحدده انطلاقا من مقاييس خاصة مثل إمكانية الرد، الذي يتعلق بـ**الفهم الجوابي(31)**، أي من دون **فهم** لا يمكن الرد على ذلك الملفوظ، وإن استطعنا الحكم على اكتماله، لأن الإجابة على الملفوظ ليست مرتبطة بوضوحه أو غموضه وإنما حسب باختين، تحدد عبر: "ثلاثة عوامل وهي الإحاطة الشاملة **بمعنى الموضوع** (وهي نسبية)، والمرتبط بـ**الرسم الخطابي** للكاتب، أي ما يريد قوله، ففي كل **ملفوظ** ومهما كان متداولا أو معقدا سواء في المؤلفات أو الأعمال العلمية أو الأدبية المعقدة، فإننا نحس فيه ونفهم منه **الرسم الخطابي** le dessein discursive، وهو ما يحدد **كلية الملفوظ** وعمقه وحدوده، فنحن **نفهم** ما يريد الكاتب أن يقوله انطلاقا من **الرسم الخطابي**، وبه نستطيع

قياس نهائية **اكتمال الملفوظ**، كما أن ملفوظا ما يصبح مكتملا إذا استعمال جنسا خطابيا ما، وهو من بين مفاهيم باختين المهمة التي يحدد بها الملفوظ.

**أهمية أجناس الخطاب:**

لا يمكن للمتكلم أن ينتج نصا من دون مقصدية معينة، وهو ما اصطلح عليه باختين بلفظة **الرسم الخطابي**، هذا الجزء الذاتي في الملفوظ متوقف على اختيار الذات المنتجة لارتباطه بـ**موضوع المعنى** ليكون النص المنتج وحدة متلاحمة ترتبط من جهة أخرى بـ**وضعية التلفظ** المجسدة **للتبادل اللفظي**، غير أن كل هذا لا يتم من دون اختيار **شكل بنائي** مستقر، وهذا العنصر الأخير أولاه باختين أهمية بالغة، لأن ما يريد المتكلم قوله سيرتبط بالأشكال المستقرة **لجنس الملفوظ**، أي باختياره للجنس الخطابي الذي سيقول فيه ما يريد، يُحدد هذا الاختيار حسب طبيعة ما يقتضيه **التبادل اللفظي**، فعندما نكون بصدد التكلم، فنحن نقوم باستعمال **أجناس خطابية** متنوعة، فكل ملفوظاتنا لها شكل مستقر مقارنة مع الأشكال الأخرى، لأن لها بنية كلية تتنوع حسب **الاستعمال**، فتعلمنا للغة لم يتم من خلال القواميس أو النحو، بل من **الاستعمال** و**التبادل اللفظي**، لهذا: "يمكننا أن نستوعب أشكال اللسان فقط في الشكل الذي يأخذه ملفوظ ما...، فأن نتعلم الكلام هو أن تعلم بناء ملفوظات"(33)، فنحن نتكلم انطلاقا من **ملفوظات** وليس من جمل أو كلمات معزولة.

لهذا كانت لمقولة **أجناس الخطاب** أهمية بالغة في نظرية باختين، فالجنس الخطابي ينظم كلامنا، بنفس الطريقة التي تنظم بها الأشكال النحوية هذا الكلام. ولأهمية **أجناس الخطاب** يرى باختين أنه من دونها يستحيل **التبادل اللفظي**، كما أن الأشكال التي نستعملها في **التبادل اللفظي** تختلف في جوهرها مع أشكال اللسان من وجهة نظر استقرارهما، فمن منظور المتكلم الأشكال الخطابية تكون أكثر مرونة وحرية من أشكال اللسان.

فالمتكلم يستقبل من جهة أشكالا مستقرة للسان (البنى النحوية)، أما الأشكال الأقل استقرارا فهي **أجناس الخطاب**: "فإذا قارنا أجناس الخطاب بأشكال اللسان، لرأينا أن الأولى أكثر تحولا ومرونة من الثانية، ولكن بالنسبة للفرد المتكلم إنه لم يبدعها إنما أعطيت له"(34).

حسب باختين لم يهتم اللسانيون بـ**أجناس الخطاب**، لأن بناءها **متنافر**، إضافة إلى كثافتها التي تبدأ من الجملة لتصل إلى فصول عديدة مثلما نجد في **الرواية**. إلا أن

باختين جعل مقولة أجناس الخطاب مهمة جدا في نظريته خاصة وأن غيابها مقرون باستحالة تحقيق **تبادل لفظي**، فما هو مفهوم التبادل اللفظي؟

**مفهوم التبادل اللفظي والحوارية:**

يتداخل الحديث عن **التبادل اللفظي** مع العديد من المفاهيم المتشابكة في نظرية باختين الساعية للكشف عن بنية وحدود وأسلوب الملفوظ، فالملفوظ في حقيقته ليس إلا عنصرا ضمن سلسلة **التبادل اللفظي**، التي تكون مشروطة بسياق معين للتلفظ، يحدده تناوب الذوات المتكلمة: "فملفوظ ما مليء بأصداء وردود ملفوظات أخرى، ترتبط بها داخل وسط مشترك **للتبادل اللفظي**"(34).

كما لا يمكن **فهم** ملفوظ ما إلا على أساس اعتباره **إجابة** عن ملفوظات سبقته، حين نقول سابقة فهذا يعني أن **الآخر** هو من قالها، إلا أن للآخر دور مهم في تكوين ملفوظاتنا، فحين نتكلم أو نكون ملفوظا ما نأخذ بعين الاعتبار ما قاله الأخر، لهذا يقول باختين مبرزا أهمية الآخر في إنتاج خطاباتنا: "الآخرون، ليسوا مجرد مستمعين سلبيين، لكن مشاركون فعّالون في **التبادل اللفظي**، فكل ملفوظ إلا ويتشكل من أجل الذهاب نحو هذه الإجابة"(35).

يختلف **الآخر** الذي سيستقبل الملفوظ أو المستقبل، حسب **جنس الخطاب**، و**السياق** المستعمل فيه، لهذا في البحث عن **أسلوب الملفوظ** يجب الإجابة على هذه الأسئلة، إلى من يتوجه الملفوظ؟ كيف يمثل الملقي أو يتمثل متلقيه أو مستقبل خطابه؟ ما هي قوة تأثير المستقبل على الملفوظ؟

من ثمة يصل باختين إلى هذه النتيجة: "إن **التحليل الأسلوبي** الذي يريد أن يحيط بكل مظاهر **أسلوب الملفوظ**، عليه أن يحلله ضمن سلسلة **التبادل اللفظي**، والملفوظ فيه ليس إلا حلقة لا يمكن إهمالها"(36)، ومنه لكي نصل إلى تحليل أسلوبي يحيط بكلية الخطاب علينا أن نقف عند الخطاب **ككل** داخل التبادل اللفظي لأنه جزء من هذا الكل،مع معرفة الجنس الخطابي المستعمل فيه.

ينتقد باختين الأسلوبية التقليدية التي لم تكن تهتم إلا **بمحتوى الملفوظ**، كما يعبر عنه المتكلم، من دون أي اعتبارات **للآخر**، الذي يعتبر إقصاؤه من الملفوظ حائلا يعيقنا عن فهم **جنسه** و**أسلوبه**، لهذا يقول: "كل تواصل، كل تبادل لفظي، إلا ويتحقق في شكل تبادل ملفوظات، أي في بعد **حواري**"(37)، فكل ملفوظ سواء كان خطابا أو محاضرة... يتعلق بمستمع، بفهمه وبجوابه، والمتكلم يكون واعيا بالبعد الحواري لخطابه،

لأنه لا يضع المستمع كشيء ثابت لا استجابة له، بل على العكس يعلم أن أمامه مستمع حي، فما يصدره هذا الأخير من حركات في عينيه مثلا، يعتبرها المتكلم بمثابة رد عما يقول، وبالتالي هناك **حوارية** تتم بينهما أثناء تبادلهما للملفوظات.

لهذا يرى باختين أن الوجود الأصيل للنص يكون دائما في حدود وعيين وذاتين، فالعلاقة **الحوارية** تتم بين ملفوظات داخل التبادل اللفظي، فملفوظان مهما كانا إذا قابلنا بينهما على صعيد المعنى فإنهما سيكونان علاقة **حوارية** لا محالة.

من ثَم كان **التوجه الحواري** سمة تطبع الملفوظ، فكل خطاب حسب باختين موجه نحو أحد قادر على فهمه، وتقديم إجابة حقيقية أو افتراضية، ويقود هذا التوجه نحو **الآخر** حتما الأخذ بعين الاعتبار للعلاقة **الاجتماعية** والهرمية الموجودة بين المتكلمين، والكل يؤثر على **شكل الملفوظ**، إضافة طبعا **للوضعية** المُتلفظ فيها، و**السياق** الاجتماعي للملفوظ، والتوجه الاجتماعي للملفوظ نجده في أي ملفوظ كان: "فهو بالتحديد أحد القوى الحية والبناءة، ففي نفس الوقت الذي تُنظم سياق الملفوظ ووضعيته، تعمل على تحديد شكله الأسلوبي وبنيته"(38).

كما أن التوجه الاجتماعي يعكس جمهور الملفوظ، الذي لا يمكن أن يتم أي تواصل لفظي كان بمعزل عنه، عليه يصبح الوصول إلى **بنية الملفوظ** مرتبطا بالشروط الاجتماعية، "لأن الولادة الحقيقية للغة تكمن في الحدث الاجتماعي الذي يُحَيَن في **التبادل اللفظي** ويجد نفسه محققا في عدة ملفوظات"(39)، فما يعيننا على دراسة أي ملفوظ هو الوعي بـ: التنظيم الاقتصادي للمجتمع، والتبادل اللفظي ضمن التواصل الاجتماعي، إضافة إلى الأشكال النحوية للغة.

**أهمية وضعية التلفظ:**

لا ينسى باختين في هذا السياق الحديث عن **وضعية التلفظ** المرتبطة بأي تواصل اجتماعي، فكل ملفوظ مشروط بوضعية تلفظه، وهذا العنصر **خارج . لفظي** ومهم من أجل **فهم** الملفوظ، ولكن السؤال الذي نطرحه ما هو الجزء **الخارج . لفظي** من الملفوظ؟

حسب باختين كل ملفوظ بتوجهه الاجتماعي إلا ويكون له معنى، لكن بعض النصوص يبقى معناها معتما لا نصل إليه، لأننا لا نعرف الظروف والسياق الذي ظهر أو قيل فيه الملفوظ، فنعطي له معنى مختلفا في كل مرة، كما أننا نصادف بعض النصوص التي لا تكملك معنى واحدا، بل تتنوع معانيها حسب طريقة **فهمها** وبناء

**سياق** تلفظها، لهذا يقول باختين: "كل **ملفوظ** يظهر وكأنه مكون من قسمين، قسم **لفظي** وقسم **خارج . لفظي**"(40). ويقولها في موضع آخر قسم **محين** وقسم **فحوى القول**، le sous entendus(41). والقسم **الخارج . لفظي** متعلق بمعرفة ظروف الملفوظ وموضوعه، ومتكلميه، أو المتحاورين فيه، وطبقتهم، وتراتبيتهم الاجتماعية، كل هذه العناصر تبني معنى الملفوظ، ويحدد القسم **الخارج . لفظي** بـ:

- أين ومتى تحدث هذه المحادثة أو التبادل اللفظي.
- موضوعها.
- وضعية كل من المتكلمين مقابل موضوع التحدث، والتقييمات التي يصدرونها حول هذا الملفوظ (42).

بذلك ليتسنى لنا **فهم** أي خطاب كان، من الضروري أن نعيد بناء **سياقه**، هذا السياق يرتبط بمحيط القول، فهو أفق **غير لفظي**، عليه يطرح باختين هذا السؤال: ما هي العلاقة التي تربط الأفق الخارج لفظي بالخطاب نفسه، أي الشيء الذي لم يقل مع الشيء الذي قيل؟ من المؤكد أن الخطاب لا يعكس الوضعية الخارج . لفظية كما تعكس المرآة شيئا ما، "وبالتالي يعتبر الخطاب بمثابة مكمل للوضعية"(43) ، منه تدخل وضعية التلفظ كعنصر جد مهم في التكوين الدلالي للملفوظ، بالرغم من أنها عنصر خارج لفظي، إلا أنه يستحيل فهم الملفوظ من دونها، وعليه يكتسب الملفوظ **تنغيمه** وشكله لا من المواد اللفظية فقط، ولكن أيضا من **السياق** الخارج لفظي الذي يؤثر حتى على محتوى الملفوظ، كما أن **التقييم** الاجتماعي يلعب دورا مهما في تنظيم **شكل الملفوظ**، يقول: "إن التقييم الاجتماعي هو ملك للحياة نفسها، ومن خلالها ينظم شكل الملفوظ و**تنغيمه**، فهو ليس بحاجة لإيجاد تعبير ملائم في محتوى الملفوظ"(44) ، فا**لتقييم** يساعد على اختيار الشكل والكلمات، أما **التنغيم**: "فهو يشكل العلاقة الضيقة ما بين الخطاب والسياق الخارج لفظي، فالتنغيم يقود الخطاب إلى خارج حدوده اللفظية"(45).

لا يمكن فهم **التنغيم**، حسب باختين، إلا إذا استطعنا أن ندمجه مع **التقييمات** المتضمنة في القول أو "فحوى القول" sous entendus المرتبطة بواقع جماعة معينة، فيتموضع **التنغيم** دائما ما بين اللفظي والخارج لفظي، ما بين الذي قيل والذي لم يقل، لهذا في التنغيم يجد الخطاب نفسه في علاقة مع الحياة، كما يجد المتكلم علاقته

بالمستمع من خلال التنغيم، لهذا فالتنغيم اجتماعي بامتياز، ولا يمكن فهمه خارج واقع التواصل الذي تم فيه الخطاب، لأن فيه دائما علاقة حية مع الحياة.

كما يوضح باختين أن كل **تنغيم** في حقيقته موجه نحو وجهتين: وجهة المستمع كشاهد، ووجهة موضوع الخطاب باعتباره المشارك الثالث في الحكي: "فكل كلمة متلفظة تعتبر تعبيرا ونتاجا تفاعليا اجتماعيا لثلاث مشاركين، المتكلم أو المؤلف، المستمع أو القارئ، والذي نتحدث عنه، فالخطاب حدث اجتماعي"(46).

إذًا، الخطاب لا يكتفي بذاته، أي لا يكتفي بالمواد المكونة لبنيته، لهذا تبقى المقاربة اللسانية المجردة، بعيدة عن إدراكه، وإن كانت ضرورية في بنائه، فالروح الاجتماعية هي ما تجعل له معنى، لأن الملفوظ يولد ويحيا في سيرورة التفاعل الاجتماعي، كما أن دلالته وشكله محددان بشكل وطبيعة هذا التفاعل، وإذا نزعنا الملفوظ من الأرضية التي تغذى منها، نفقد المفتاح الذي يقودنا إلى فهم شكله ومعناه أو تيمته التي أولاها باختين أهمية كبيرة نتطرق إليها في عجالة.

**مفهوم تيمة التلفظ:**

بعد أن تعرض باختين لكل الشروط التي يمكننا أن نحدد من خلالها معنى النص أو الملفوظ، بإبراز فرادته، واجتماعيته، سنغوص الآن في الحديث عن مفهوم التيمة عنده التي ربطها بالنظر إلى **كلية** النص وفرادته يقول:"كل **تلفظ** يشكل **كلا**، إلا ويكون له **معنى** محدد ووحيد، ونسمي معنى هذا **التلفظ** الكامل **تيمته**، فالتيمة عليها أن تكون وحيدة، وفي حالة ما إذا كان العكس فلن يكون لدينا أساس لتحديد التلفظ، لأن **تيمة التلفظ** مثلها مثل التلفظ فردية وغير قابلة للتكرار"(47).

يسمي باختين المعنى الكامل **للتلفظ بالتيمة** Thème، وميزة التيمة أن تكون تعبيرا عن وضعية اجتماعية ما، فهي من يمنح للتلفظ حياته، يقول: "تحضر التيمة باعتبارها **تعبيرا** عن وضعية اجتماعية حية أعطت ولادة تلفظ ما"(48) ، فأن نقول مثلا جملة "كم الساعة"، فإنها في كل مرة تأخذ معنى جديدا في استعمالها في ظروف معينة، بالتالي نقول بمصطلح باختين تأخذ **تيمة** جديدة مرتبطة بالوضعية التاريخية المجسدة أين تم طرح السؤال.

عليه لم يكن تعريف **التيمة** مرتبطا بالعناصر اللسانية فقط أي بالكلمات، والأصوات، إنما ارتبط بعناصر غير لفظية تعود إلى **وضعية التلفظ** "فمن المستحيل أن

نفهم التلفظ، إذا ابتعدت عن نظرنا العناصر المتعلقة بالوضعية، حتى وإن غابت عن نظرنا كلماته الأكثر أهمية".(49)

إذًا، الوضعية ضرورية لفهم تيمة التلفظ، إذ تبني لنا سياقه، لهذا من دون التيمة يستحيل فهم تلفظ ما، كما أن أهمية الفهم تكمن في أنه وحده القادر على تحديد قبول تيمة من رفضها، لهذا يسمي باختين هذا الفهم بـ**الفهم الفَعّال**، فيعتبر أن:"وحده الفهم الفعال يسمح لنا بأن نقبل التيمة". ففهم تلفظ الغير يعني التوجه نحو التلفظ ووضعيته المرتبطة بـ**سياق** مناسب، لهذا يكتسي الفهم هنا طابعا **حواريا**: "فأن تفهم هو أن تضع في مقابل كلمة المتكلم كلاما آخر"(50).

تصاحب عملية الفهم التي توصلنا إلى تيمة التلفظ ما يسميه باختين بـ**التقدير**، الذي يظهر عادة بشكل واضح عن طريق **التنغيم**، ويحدد هذا الأخير، في أغلب الأحيان، بـ**الوضعية** أو **المقام** الذي يتم فيه الكلام، لأنه بزوال المقام يزول التقدير والتنغيم معا ويصعب بعدها فهم التلفظ.

منه مهما كان **التلفظ** ومهما كان عمق محتواه الدلالي والوسط الاجتماعي المتلفظ فيه، فإن **التقدير/التثمين** يلعب دورا في إبراز **تيمته** فلا نستطيع بناء تلفظ من دون صيغ **تقديرية**، فكل **تلفظ** يحمل مسبقا توجها تقديريا، وحدها العناصر المجردة الموجودة في نظام اللسان وليس في نظام **التلفظ** تكون خالية من القيمة التقديرية.

## خلاصة

عرضنا في هذا المقال بعضا من مفاهيم باختين الدقيقة التي أصبحت الدراسات اللسانية النصية تتداولها، لنبين أن هذا المنظر له اجتهاده الخاص في صياغة هذه المفاهيم: مفهوم السياق، وجنس الخطاب والملفوظ والتلفظ، والتيمة، والتفاعل اللفظي..، وكلها مفاهيم تعرض إليها فان ديك وموشلر وروبول ودي بوغراند بطريقة لا تختلف عما تحدث عنه باختين الاختلاف فقط في المصطلحات وفي تاريخ التأليف، فالدراسة **عبر-اللسانية** التي يقترحها باختين قائمة على أسس مهمة تعيد الاعتبار للعديد من المكونات النصية التي حجبتها الدراسات اللسانية التي بأرت اجتهاداتها على الجملة، لهذا سعى باختين جاهدا من أجل التفصيل في المفاهيم المشار إليها، والتي لم نستطع أن نجمعها برمتها في هذا المقال.

**الهوامش:**

1 Jean Michel Adam; Eléments de la linguistique textuelle; Théorie et pratique de l'analyse textuelle; Deuxième édition Margage.1990, p9.

2 انظر: رسالة الأستاذ مفتاح بن عروس:الاتساق والانسجام في القرآن،، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه دولة، جامعة الجزائر 2007، 2008. حيث اعتبر هاريس أو من خرج من الجملة إلى الخطاب، انظر المقدمة ص4، ونجد نفس هذا القول عند مانغينو في كتابه Initiation aux méthodes de L'ANALYSE DU DISCOURS problèmes et perspectives; Classique Hachette: Paris 6; 1976، وأيضا عبد الكريم جدعان في كتابه: إشكالات النص دراسة لسانية نصية انظر ص ، وأيضا سعيد حسن البحيري في كتابه: "علم اللغة النصي، المفاهيم والاتجاهات،الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان،1997. ص 88.

3Jean Michel Adam; Eléments de la linguistique textuelle. 1990. p 7.

4 ويترجمها زياد العوف بـ ما وراء اللسانية، في كتابه: الأثر الإيديولوجي في النص الروائي، ثلاثية نجيب محفوظ نموذجا، مؤسسة النوري للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ط1، 1993، ص150.

5Jean Peytard: Mikhaïl Bakhtine: Dialogisme et analyse de discours: petrand Lacoste parie 1995. p11

6Catherine Depretto et les autres; l 'heritage de Mikhail Bakhtine. Edition presses universities de Bordequx 1997.

جمع هذا الكتاب دراسات عرضت في اليوم الدراسي الذي خصص من أجل دراسة أعمال باختين نظمته "حلقة الدراسات والبحوث حول الحضارات civilisation السلافية" CERCS بالمشاركة مع قسم اللغة والأدب الفرنسي"، هذا اليوم الدراسي المنعقد في ماي 1995 ، فقد ركز الأساتذة في دراساتهم: على مختلف أقطاب الإرث الباختيني أو التركة الباختينية وما فيها من حديث عن الثقافة الشعبية، والنوع، والحوارية، والتلفظ، والرواية. أما ثلة أخرى فركزت على الجانب التاريخي والثقافي للعالم، من أجل إظهار بدقة الجانب الفلسفي المؤطر لعمله. مع عدم ترك مشاكل الاستقبال التي تشكل مظهرا جد مهم في الظاهرة الباختينية. ص.15

7Todorov: Le principe Dialogique Suivi de Ecrit du cercle de Bakhtine Edition du seirl: 1981. p29. 30.

9 Ibid,p 35..39.

10 لتوضيح هذه النقطة انظر كتاب باختين: علم الجمال ونظرية الرواية، ففي المقال الأول المعنون: مشكل المادة والشكل والمحتوى تعمق في نقده للشكلانيين.

11 Le principe Dialogique. P36.

12 Ibid. p38.

13 Ibid, p 40

14 **B**akhtine; Marxisme et philosophie du langage, Essai d'application de la méthode sociologique en linguistique, Traduit du russe et présenté par Marina Yaguello, les édition de minuit;1977.

15 Ibid.,p12.

16 حسب جاكوبسن، حين انتقد باختين دوسوسير، لم يكن ينطلق من رؤية أو توجه ماركسي، بل من وعي علمي مؤسس مكنه من إيجاد ثغرات في نظرية دوسوسير، فيما يخص اللسان والكلام الآني والزماني، فاللسان حسب باختين متحرك، متحول، لا يمكنه أن يستقر على حال واحد، لهذا تستحيل دراسته في فترة محددة زمنيا فحتى اللفظة في ذاتها، إذا تم تلفظها مرتين فإنها لا تكون مطابقة لذاتها يقول" إن طبيعة **العلامة** في أصلها أنها **متحركة وحية ومتعددة النبرات**، فقط الطبقة المتحكمة هي من تحاول أن تجعلها موحدة النبرة. المرجع نفسه: ص14.

17 Mikhaïl Bakhtine: Marxisme et philosophie de langage. p13
18 Ibid.,p15.
19 Le principe Dialogique. P43
20 Ibid; p44.
21 Mikhail Bakhtine; le problème du texte in Esthétique de création verbale; Bibliothèque des idées;Traduit du Russe par :Alfreda Aucouturier; Préface de Tzretan Todorov;Edition Gallimard 1984;p314.
22 Ibid: p 276.
23 Ibid: p 276
24 Ibid: p 265
25 Ibid: p 286
26 Ibid: p 272
27 Ibid: p 277
28 Ibid: p 278
29 Ibid: p 280
30 Bakhtine/ voloshinov: la structure de l'énoncé: in le principe dialogique todorove p288.
31 Bakhtine:Esthétique de la création verbal: p282.
32 Ibid; P283.
33 Ibid: p285.
34 Ibid: p298.
35 Ibid: p 303.
36 Ibid: p398.
37 Bakhtine/ voloshinov: la structure de l'énoncé: in le principe dialogique. todorove p292
38 Ibid: p299.
39 Ibid: P288.
40 Ibid: p301.
41 Ibid. P191
42 Bakhtine/ voloshinov: la structure de l'énoncé p302 ويورد نفس هذه العناصر في مقاله: le discours dans la vie… P289
43 Bakhtine: le discours dans la vie… p190
44 Ibid: p193.
45 Ibid: p193.
46 Ibid: p198.
47 Bakhtine: Marxisme et philosophie de langage: P142.
48Ibid.,P142.
49Ibid.,p143.
50 Ibid: p149.